﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـخـاسِـرُ الحقيقيُّ مَن حُرِمَ هداية الله

"بعد أن بيَّنت الآية السابقة أنّ هؤلاء المرتدّين محرومون من الهداية بسبب اختيارهم الضلالة وتفضيلها على الهدى، جاءت هذه الآيةُ لتبيّن مصير من كان هذا أمره في الدنيا لا شك أنه الخاسر الحقيقي في الآخرة، ومن خسر آخرته فماذا ربح!"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا جَرَمَ﴾: "قالَ الفراء: هيَ بِمَنْزِلَة (لا بُدّ) و(لا محالة) في الكَلام، ثمَّ كثُرت فصارَت بِمَنْزِلَة قَوْلهم: حَقًّا، وأصلها: جَرَمَتْ، أي: كَسَبَتْ، قالَ الشّاعِر:

وَلَقَد طعنت أبا عُيَيْنَة طعنة *** جَرَمَتْ فزارَةُ بعْدها أن يغضبوا

أي: كَسَبَتْهم"[2]، وقال سيبويه: "جَرَم: عَمِلتْ؛ لأنها فِعلٌ، ومعناها: لقد حَقَّ"[3].

2) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: الخُسر والخُسران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان؛ فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر، ويستعمل في المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15][4]، و"الخَسار

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.
(2) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصفات، ص: 72.
(3) السّيرافيّ، شرح كتابِ سيبويه: 3/ 357.
(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1-2]؛ الفَرّاءُ: لَفي عُقوبَةٍ بِذَنْبِهِ وأن يَخْسَر أهله ومَنْزِلَهُ في الجَنَّةِ ... وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: 103]؛ قالَ الأخفش: واحِدُهُمُ الأَخْسَرُ، مِثْلُ الأَكْبَرِ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾ [هود: 63]؛ قال ابْنُ الأعرابي: أي غَيْرَ إبعاد مِنَ الخَيْرِ أي غَيْرَ تَخْسيرٍ لَكُم لا لي"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الانتكاسُ بعدَ الإيمانِ هو الخسرانُ في الدنيا والآخرة

بيّنت هذه الآية الكريمة أنَّ الذين ارتدّوا بعد إيمانهم "لا محالة أنهم هم الخاسرون في أُخراهم، حيث ضيَّعوا أعمارهم فيما لا يفيد، وصرفوها في اقتراف المعاصي والآثام التي تُفضي بهم إلى غضب اللّه عليهم، والخلود في العذاب الأليم، وكان عليهم أن يتّجهوا إلى ما خلقوا له من توحيد اللّه وعبادته، وإلى كل عمل نافع لهم في الدنيا والآخرة"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرّ فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

كمالُ الاتصالِ؛ لوقوعها موقعَ النّتيجة لما قبلها

فُصلت هذه الآية الكريمة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال؛ لأنها "واقعة موقع النتيجة لما قبلها من الآية السابقة؛ لأنّ ما قبلها صار كالدليل على مضمونها؛ ولذلك افتتحت بكلمة نَفْي الشك"[3]، ولأنها "تعقيبٌ على هذا العَرْض الكاشفِ لأولئك الذين كفروا، وعَموا عن الهدى، وصمّوا عن الداعي الذي يدعوهم إليه"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 380.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بأسلوب ﴿لَا جَرَمَ﴾:

الأخسرون في الآخرة هم من عَموا عن طريق الإيمان

عبّر السّياقُ الكريمُ بهذا الأسلوب لما يحمله من معنى تأكيد وقوع الخسران وتحقيقه؛ فمعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: الحَقُّ أنَّهم في الآخرة هم الأخسرون؛ الناس أكثروا استعماله فصار في معارفهم بمعنى (حقًّا)، (ولا بُدَّ) في الحقيقة (حقًّا)؛ لأنّه إذا كان لا بدّ فهو حَقٌّ[1]، قال ابن عباس: "يريد: حقًا أنهم الأخسرون"[2].

وقال الزّجّاج: "ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: (لا) نفيٌ لِما ظنّوا أنه يَنفعهم، كأنَّ المعنى: لا ينفعهم ذلك، (جَرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون)، أي: كَسَب لهم ذلك الفعلُ الخسرانَ...، والمعنى: لا يندفع عنهم عذابي، ولا يجدون وليًّا يصرف عنهم نقمتي، ثم ابتدأ مستأنفًا ﴿جَرَمَ﴾"[3]، فهي "كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل"[4].

بلاغةُ تعدّدِ المؤكّداتِ في الآية:

خُسرانُ الكافرِ عامّة، والمرتدِّ خاصّة، هو الخسران الأكيد

الحكم على هؤلاء المرتدّين بالخُسران الكامل، وتخصيصُهم به؛ يقتضي التوكيد بأكثر من مؤكِّد؛ وذلك لِخُطورة الحُكم؛ لذلك تكاثرت المؤكِّدات في هذه الجملة المتَّسمة بإيجاز القَصر، من ذلك: التأكيد بأسلوب ﴿لَا جَرَمَ﴾، وحرف التوكيد (أنّ)، وأسلوب القَصر بضمير الفصل وتعريف الطرفَيْن ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، واسمية الخبر: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ دون (يخسرون)، أو (خسروا). "وإنما جاء هذا التأكيد لبيان حقيقةِ سوءِ حال المرتدّين في الآخرة"[5].

غرضُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

خُسرانُ الآخرةِ هو الخُسرانُ الكبير

"قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تنبيهًا على عظيم أمر الآخرة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/ 115.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 366.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 38.
(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.

الذي تناساه المرتدّون"[1]، ولَفْتًا إلى دار البقاء التي هي أَوْلى بالعناية من نعيم الدنيا الزائل، برغم أنهم خاسرون في الدنيا والآخرة.

بلاغةُ القَصْرِ:

جاء التّعبيرُ بأسلوب القصر والتخصيص في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: "لعظم خسرانهم، كأنه لا خاسر سواهم"[2]، وأنهم "هم الخاسرون خسارة كاملة وافية"[3]؛ لأنهم ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المُخلَّد، و"معلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا؛ ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظُم خسرانه، فلهذا السبب قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، أي: هم الخاسرون لا غيرهم"[4].

كلُّ خسارةٍ - وإن عظُمت - هي دونَ خُسرانِ الكافر المرتدّ

سِرُّ اختيارِ وصفِ الخُسران:

اختارُ القرآنِ الكريم وصفَ المُرتدّين بالخُسران في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لوجود موجبه من خلال وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستٍّ هي: أنهم استوجبوا غضب الله، وأنهم استحّقوا العذاب الأليم، وأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأنه تعالى حرمهم من الهداية، وأنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة[5]؛ فلمّا وصفهم الله تعالى بهذه الجرائم الستِّ كان من المناسب وصفهم بالخسران الذي هو أبين صفات الخيبة والضياع، فـ "كلُّ واحد من هذه الستِّ مِن أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات"[6].

الخُسرانُ أبينُ الصّفاتِ الدّالّة على البَلَهِ والجهل

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 219.
(3) الحِجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 340.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 277.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.

عِلّةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة في الخسارة:

مزيدُ ترهيبٍ وتهديدٍ ودفعٍ بهم نحو الإيمان

يدلُّ التّعبيرُ عن خسران المرتدّين كلَّ خير بالجملة الاسمية ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون الفعلية: (خسروا) على ثبات الحُكم عليهم، والقطع به في حقّهم، وفي هذا مزيد ترهيب وتهديد ودفعٍ بهم نحو الإيمان؛ فما تزال الفرصة سانحةً ما لم ينزل بهم الأجل، وإلا "ضيّعوا أعمارَهم، وصرفوها إلى ما لا يُفضي إلا إلى العذاب المخلد"[1].

بلاغةُ حذفِ متعلّق ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

خُسران الكافرين خُسران عامٌّ في الدّارين

سكت النظم الكريم عن ذكر متعلق ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لإفادة العموم فيما خسره هؤلاء؛ فيخسرون الدنيا، ويخسرون الآخرة، يخسرون بركات الآيات التي كفروا بها، ويخسرون راحة القلب الذي تحقّقه آيات الله تعالى للمؤمنين، يخسرون أنفسهم، ويخسرون أهليهم، إلى آخر جهات الخسران التي لا تكاد تتناهى؛ لذلك تعدّدت تقديرات العلماء في ذلك، فقالوا: "خسروا الجنّة ورحمةَ الله، خسروا أهلهم ومنزِلهم الّذي كان لهم في الجنّة، وخسروا منهم أنفسهم حين قذَفوها في النّار، خسِروا النّعم الدّائمة الباقية بالزّائلة الفانية، وخسروا أنفسهم؛ حيث قُتلوا، وأُسروا في الدنيا"[2].

وجه التشابه اللفظيّ:

اجتمع في (الأخسرون) أسبابُ الشّقاء والعذاب، و(الخاسرون) دونه

وقع التّشابهُ اللّفظيُّ بين قوله تعالى في سورة هود: "﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: 22]، وقوله تعالى هنا في النَّحل: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ فالملاحظ اختيار وصف ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود: 22] في هود؛ لِأنّ هَؤُلاءِ صدّوا عَن سَبيل الله تعالى، وصدوا غَيرهم فضلّوا، فهم الأخسرون، يُضاعف لَهُم العَذاب، وفي النَّحل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 582.

صَدّوا فهم الخاسرون؛ "لِأن ما قبلها في هَذِهِ السّورَة - سورة هود - ﴿يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 20] ﴿يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ [هود: 21] لا يعتمدان على ألف بَينهما"[1].

وفي "آية سورة هود تقدَّمها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ [هود: 21]؛ فكان المقصود بيان أنَّ خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا"[2]، و"في الفواصل هنا - في النحل - اعتماد الألف كـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ فعبّر به لرعاية ذلك"[3].

"وإنما كانوا - في هود - أخسرين - أي: شديدي الخسارة - لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104]، فكانوا أخسرين؛ لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة"[4]، بخلاف موضع النحل؛ فجاء بوصف ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنّ الأسباب المذكورة في سورة النحل للحكم بالخسارة عليهم ليست مساوية لما ورد في سورة هود.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 474.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 39.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»